نقد الشعر عند معاوية بن أبي سفيان

أ.د. وليد قصاب

تمهيد.

من الخلفاء الذين عُرف عنهم اهتمام مذكور بالشّعر والشّعراء الصحابي الجليل، أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ فقد أُثرت عنه مجموعة هامة من الآراء النقدية، والملاحظات الأدبية، وهي تُفصح عن احتفال بالشعر، وتقدير لدوره، وإحساس بخطر الشعراء في المجتمع العربيّ.

ولا غرو أن يكون الأمر كذلك؛ فالعربي مفطور بطبعه على حبّ القول الجميل المؤثر، ولا سيما في أرقى صوره الفنية: الشعر، زد على ذلك أنه مكوِّن رئيس من مكونات الشخصية الثقافية العربية «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُ منه» وهو ديوان القوم، ومستودع أخبارهم، وسجل أيامهم ومآثرهم وتاريخهم، فما كان يمكن لعربي ألا يأخذ منه بخط قلّ أو كثُر، فما بالك إن كان من عليّة القوم ورُفعائهم؟.

التكوين الثقافي لمعاوية

ـ فصاحته وفقهه :

اعتُني بمعاوية ـ فيما يبدو ـ منذ صغره؛ كان يحسن الكتابة والكتابةُ قليلة في العرب يومذاك، ولذلك أصبح فيما بعدُ كاتب رسول الله ـ ﷺ ـ وأمينه على الوحي، وعُلّم الحساب، وكان من فصحاء القوم وأرباب الخطابة فيهم. قال ابن عساكر: «كان من الكَتَبَة الحَسَبَة الفَصَحَة»(١) وذكره الجاحظ

(١) مختصر تاريخ دمشق : ٢٤/٤٠٠.

في الخطباء(١)، وأورد قول سعيد بن المسيّب، وقد سئل: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله ـ ﷺ ـ فقيل: ليس عن هذا نسألك قال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وما كان ابن الزبير دونهم، ولكن لم يكن لكلامه طُلاوة»(٢).

وقال طحلاء يمدح معاوية بالفصاحة، وجهارة الصوت، وجودة الخطبة:

رَكُوبُ المنــابــر وثَّابُهــا ... مِعَنٌّ بـخـطـبـتِه مِـجْـهَرُ
تَريــع إليــه هــوادي الكــلام ... إذا ضــلّ خـطـبـتَه المُهْذَرُ(٣)

وهيّأه تكوينه الثقافي، وفطنة وذكاء أُوتيهما ليكون من الفقهاء. قال ابن عباس: «معاوية فقيه(٤).

ـ قوله الشعر :

وكان شاعراً، وقد أُثر عنه قريض كثير. روي له، وهو ـ على رأي ابن رشيق ـ لائق به، دالّ على صحة ناقله ـ قوله:

إذا لم أجُدْ بـالِحلم مني عليكـمُ ... فمن ذا الـذي بعـدي يؤمَّلُ للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكري فعلَ مـاجـد ... حباكِ على حرب العداوة بالسلم(٥)

وروي له في غير موضع:

فقَدتُ سفـاهـتي وأزحـتُ غَيّي ... وفـيَّ على تحـلُّمـيَ اعـتراضُ
عـلى أني أجـيـبُ إذا دعـتْنـي ... إلى حـاجـاتِـهـا الحـدقُ المِراضُ(٦)

ومن شعره قوله :

كـأن الجبـانَ يَـرى أنـه ... يـدافـعُ عنـه الفـرارُ الأجـلْ

---

(١) البيان والتبيين : ١/٣٥٢.
(٢) السابق : ١/٣١٤.
(٣) السابق : ١/١٢٧.
(٤) أسد الغابة : ٤/٣٨٦، العقد الثمين : ٧/٢٢٨.
(٥) العمدة : ١/٣٥.
(٦) العمدة : ١/٣٥.

فقد تدرك الحادثاتُ الجبانَ ... ويسلم منها الشُّجاعُ البطلْ(١)

وقوله :

أظن الحِلم دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُستجهل الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجال ومارسوني ... فمُعْوَجٌّ عليّ ومستقيمُ(٢)

وقيل إن معاوية ـ رضي الله عنه ـ لما حضرته الوفاة جعل يقول:

إن تناقشْ يكن نقاشُك ياربِّ عذاباً، لا طَوْقَ لي بالعذابِ

أو تجاوزْ فأنت ربٌّ رؤوف ... عن مسيء ذنوبُه كالترابِ(٣)

وهي نماذج لا ينقصها التدفق والرونق، وتكشف عن منزع خلقي، وشخصية متزنة وقور(٤).

ـ مجالسه العلمية :

وعلى انشغال معاوية بأعباء الحكم، ومسؤوليات الخلافة، والالتفات إلى توطيد دعائم الدولة؛ كانت له مجالس علمية وأدبية يستقبل فيها العلماء والشعراء، وأرباب اللَّسَن واللَّقَن، فيستمع إليهم، ويسألهم عن أخبار العرب وأيامها وأشعارها، ويناقشهم في أحوال الكلام، وشؤون الفصاحة والبلاغة.

كان يدخل عليه عبيد بن شرية الجرهمي، وهو رواية من المعمرين، وأحد القدماء في الحكمة والرئاسة والخطابة، استحضره معاوية من صنعاء، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم وأشعارهم، ثم أمر بتدوين أخباره في كتابين: أحدهما «كتاب الملوك وأخبار الماضين» والثاني «كتاب الأمثال»(٥).

---

(١) الكامل : ١٣٥٩، نصيحة الملوك : ٥٠٩.

(٢) تمام المتون : ١١. (٣) العمدة : ١/٣٥.

(٤) انظر نماذج كثيرة من شعره في وقعة صفين: ٣٢، ٧٢، ٧٤، ٧٩، ٢٧٣، ٢٧٥، ٣٤٦، ٣٦٧، ٤١٦، ٤٣٣، ٥٤٣.

(٥) الأعلام : ٤/١٨٩، وانظر بعض ما كان يجري من حديث بين معاوية وعبيد في لباب الألباب: ١٢٤، فاكهة الضيف : ٨٢، شرح شواهد المغني: ٢/١٦٨.

كما كان دَغفل بن حنظلة النسابة البكري كثير الدخول عليه، وكان دائم السؤال له عن الأيام والوقائع والأشعار، وكان يجمع في مجلسه بينه وبين النسابة الراوية أبي السَّطَّاح اللخمي(١).

ومن رواد مجالس معاوية الكثيرين صُحار بن عيَّاش العبديّ الخطيب المفوّه، كان يدخل عليه فيسأله عن البلاغة وأحوالها. قال له مرة: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال صحار: شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا(٢).

وسأله مرة عن الاختصار، فقال له: ما أقرب الاختصار؟ قال: لمحة دالّة(٣). وسأله في مرة أخرى: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: ما الإيجاز؟ قال: صُحار: أن تجيب فلا تُبطىء، وتقول فلا تخطىء. ولعل الإجابة لم تنقع غلة معاوية، لعله استقلّ كلام صحار ـ كما يقول أبو حاتم(٤) ـ أو لعله استكثره ـ كما يقول أبو هلال(٥) ـ فقال: أو كذلك تقول؟ فاستقاله صحار، وقال: أقلني يا أمير المؤمنين، ألا تبطىء ولا تخطىء، فأتى بكلام أوجز من الكلام الأول، فكان في الذي أبقى غنى عنهما وعوض منهما كما يقول العسكريّ.

وسأل عمرو بن العاص ـ وهو من أهل اللَّسَن والقول ـ: من أبلغُ الناس؟ قال: من ترك الفضول، وأقبل على الإيجاز(٦)، وفي رواية: «من قلل من الإكثار، واقتصر على الإيجاز»(٧).

وهو يقول مرة لابن أوس: ابغ لي محدّثا. قال: أو تحتاج معي إلى محدّث؟

---

(١) البيان: ١/٣٦٢.
(٢) البيان: ١/٩٦، ٤/٤٦.
(٣) الكامل: ٨٨٤.
(٤) فاكهة الضيف: ٤٦.
(٥) الصناعتين: ٣٨.
(٦) نصيحة الملوك: ٥٥٣.
(٧) لباب الألباب: ٣٣٦.

قال: أستريح منه إليك، ومنك إليه، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك»(١) إن معاوية ينبّه إلى أمر هام يتعلق بفن المحادثة، وهو أن الاستماع طويلاً إلى محدث واحد قد يبعث الملل، أو يخفف وقدة الاستمتاع، كما أن الصمت في بعض المواطن أولى من الكلام، وقد أورد أبو هلال كلام معاوية في الاحتجاج لقول ابن المقفع في أن البلاغة اسم لمعان كثيرة... منها ما يكون في السكوت.

ـ تمثله بالشعر :

وكان معاوية حُفَظَة للشعر، كثير التمثل به، والاستشهاد بعيونه وشوارده في المجالس والمواطن المختلفة، وقد حفظت لنا كتب التراث نماذج كثيرة من الأشعار التي تمثل بها.

دخل الأحنف بن قيس على معاوية، فتكلم بكلام، فقال معاوية: لقد أُوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلم، وأنشأ يقول:

يا أيها السائل عمّا مضى ... وعلمِ هذا الزمن العائبِ
إن كنتَ تبغي العلم أو أهلَه ... أو شاهداً يُخبِر عن غائب
فاعتبِر الأرضَ بسكانها ... واعتبر الصاحبَ بالصاحب(٢)

وتمثل معاوية في عبدالله بن بُديل، وكان شهد صفين مع علي وقتل فيها:

أخو الحرب إن عضّتْ به الحرب عضّها ... وإن شمرّت عن ساقها الحرب شمّرا
ويدنو إذا ما الموتُ لم يكُ دونه ... قِدى الشبر يحمي الأنفَ أن يتأخّرا(٣)

ورأى معاوية هُزاله وهو متغرٌ، فقال :

أرى الليالي أسرعتْ في نقضي ... أَخَذْنَ بعضي وتركْنَ بعضي
حَنَيْنَ طولي وتركنَ عَرضي ... أقعدْنني من بعد طول النَّهْضِ(٤)

---

(١) الصناعتين : ٢٠.
(٢) البيان : ١/٥٤
(٣، ٤) البيان : ٤/٦٠.

ويروى أنه لما أتاه موت عتبة تمثل:

إذا سار من خلف امرىء وأمامَه وأُوحِش من أصحابه فهو سائر

فلما أتاه موت زياد تمثل :

وأُفردتُ سهماً في الكنانة واحداً سيُرْمى به أو يكسر السهمَ كاسرُ(١)

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان، فقال معاوية متمثلاً:

شجاعٌ إذا ما أمكنتْني فرصةٌ وإن لم تكن لي فرصةٌ فجبانُ(٢)

ولما ثقُل في المرض الذي مات فليه دخل عليه الحسن بن علي يعوده، فاستوى جالساً، وقال:

وتجلدي للشامتين أريهم(٣)

ولمّا احتضر كان يتمثل بقول القائل :

فهل من خالد إمّا هلكنا وهل بالموت يا للنَّاس عارُ(٤)

وغير ذلك من النماذج الكثيرة(٥) التي تدل على غزارة ما كان يحفظه معاوية من الشعر، وقدرته على استحضاره في الوقت المناسب، والتي تؤكد طبيعة الجد والوقار، وتكشف عن احتفاء بالشعر الهادف ذي المنزع الديني والخلقي.

---

(١) الكامل : ١٣٨٧.

(٢) العقد : ١/٩٩، عيون الاخبار : ١/١٦٣.

(٣) تمام المتون : ٦٦.

(٤) العقد الثمين : ٧/٢٣٢.

(٥) انظر أمثلة مما كان يتمثل به معاوية في العقد: ١/١٣٦، أمالي الزجاجي: ٧، نسب قريش: ١١٠، ١٢٧، ١٤٠، الفرج بعد الشدة: ٥/٦، عيون الأخبار: ١/١٦٥، ٣/١٨٨، جمع الجواهر: ٨٤، طبقات فحول الشعراء: ١٩٤.. وغيرها.

معاوية الناقد

كان معاوية إذن خليفة عالماً، يحسن الكتابة والحساب، وهو من أرباب الفصاحة والبلاغة، حُفَظَة للشعر وأقوال العرب، كثير التمثل به في المواقف والمقامات التي تتطلبه، بل كانت فيه ملكة قرضه، وهو كثير الاحتفاء في مجالسه بالعلماء والأدباء وأرباب الفصاحة والقول، يستنشدهم وينشدهم، ويسأل عن الأيام والأخبار والوقائع، وعن شؤون البلاغة والبيان، ويدلي في الحوار والنقاش بدلو العالم الأديب. فلا عجب بعدُ أن يكون لمعاوية حسّ مرهف، وذوق مدّرب مصقول، يميز به جيد القول من رديئه، ويعرف حسنه من قبيحه، ويمكّنه من تلمس أقدار الكلام، ومقامات الشعراء ومنازلهم، لا عجب أن تكون في معاوية ملكة النقد، فالنقد تمييز وإدراك، وتذوق وإحساس، وقد استوفى أمير المؤمنين الأدوات التي تسعفه على ذلك، والخبرة التي تجعله أهلاً للخوض في هذا النشاط الأدبي.

وقد تجمّع لدينا عدد غير قليل من آراء معاوية بن أبي سفيان الأدبية النقدية(١) ووقفنا على قدر من مواقفه وملاحظاته حول الشعر والشعراء. ويحاول هذا البحث التعامل مع هذه الآراء والمواقف، للوقوف على جانب هام من شخصية الخليفة الأموي معاوية، وهو الجانب الأدبي النقدي، وهو جانب نحسب ـ في حدود ما اطلعنا عليه ـ أن أحداً لم يبحثه البحث الجاد الذي يستحقه.

ومعاينة ما وقع لنا من أقوال معاوية ومواقفه من الشعر والشعراء تشي بخبرة بفن الشعر، وتضع أيدينا على مجموعة غير قليلة من المسائل والقضايا الأدبية التي توقف عندها هذا الناقد، وبدا فيها سباقًا إلى بعض الآراء والملاحظات التي شاعت بعد ذلك في النقد العربي.

---

(٦) جمعناها في كتابنا نصوص النظرية النقدية عند العرب: ٧٥ ـ ٧٩.

وظيفة الشعر

ازدهر الشعر في عصر بني أمية، وتعدّدت ضروبه وصوره، وتنوعت معانيه وأشكاله، وعُرفت فيه طوائف كثيرة من الشعراء من شتى المذاهب والاتجاهات السياسية والدينية والفنية، وكان وراء هذا الازدهار والتطور عوامل سياسية واجتماعية وحضارية، وبدا الشعر سلاحاً فعّالاً ترفعه جميع الفرقاء المتصارعة، وتستخدمه في الحجاج والجدال والدفاع عما تعتقده الحق، فهو جهاز إعلام تلك العصور.

وكان معاوية من أعرف الناس بدور الشعر، ولاسيما في حياة العرب، وقد أثرت عنه أقوال كثيرة تتحدث عن هذا الدور، وهي ـ في مجموعها ـ تعدّ الشعر نشاطاً ثقافياً جاداً، يهدف إلى تحقيق وظائف خيرة نبيلة، وتستبعد كونه ضرباً من الترف أو اللهو، أو فناً جمالياً صرفاً، مجرداً عن الغاية، إن الشعر غائي هادف، وهو مفيد نافع، وقد تأثر معاوية ـ كما سنرى ـ في حديثه عن دور الشعر تأثراً عميقاً بآراء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبدا يرتسم مراسمه في الحث على تعلم الشعر وروايته وبيان غاياته ووظائفه المختلفة، وتوقف معاوية ـ على نحو ما فعل الفاروق أبو حفص قبله ـ عند عدد من أدوار هذا الفن الأدبي ومناحي تأثيره:

ـ الدور النفسي :

إن الشعر فن مؤثر، وهي ـ بما ينطوي عليه من خصائص جمالية ممتعة مطربة ـ ذو قدرة عجيبة على الانسراب إلى نفس المتلقي، والتأثير فيها. إن له لوناً من الدبيب الخفي الذي يشبه السحر، يحمل على الانفعال والاستجابة، وعلى تبني المواقف التي يدعو إليها. إن الشعر ـ بطاقاته الثرة ـ باعث على الإثارة، ومحرض على التفكير والتغيير، بل قد يقلب في نفس المتلقي ميزان الأمور، فيدفعه إلى نقيض ما كان عليه، قال معاوية مجلّياً هذا الدور النفسي للكلمة، في معرض الحث على تعلم الشعر، أرقى صورها، : «اجعلوا الشعر أكبر همّكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير ـ بصفّين ـ وقد أتيت بفرس أغرّ

محجّل، بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة.

أبتْ لي همّتي وأبى بلائي	وأخذي الحمدَ بالثمن الرّبيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي	وضربي هامةَ البطل المُشيح
وقولي كلما جَشَأت وجاشت:	مكانك تُحمدي أو تستريحي
لأدفعَ عن مكارمَ صالحات	وأحمي بعدُ عن عرضٍ صحيح(١)

لقد أثر شعر الفروسية الحارّ المتدفق في نفس معاوية، حمله على الثبات بعد خوف، وعلى الجرأة بعد خور.

الدور الخلقي الإصلاحي : وهكذا يمتلك الشعر ـ الملتزم بقيم نبيلة ـ قدرة هائلة على التسديد والإصلاح، وعلى التوجيه والتعليم، ويغدو درساً هاماً في التربية لا يمكن إغفال شأنه، إنه عندئذ سمو بالخلق، وارتقاء بالنفس، لأنه تجسيد للمبادىء الكريمة، والمثل الرفيعة، وهو ـ بتأثيره النفسّي الذي أشار إليه معاوية ـ يحقق هذه الغاية أكمل تحقيق، ويصبح لوناً من تهذيب النفس وبنائها بناء فكرياً سليمًا، تستعلي فيه على الصغائر، وتشمخ على الرذائل، فتغدو طُلَعَة للخير، توّاقة إلى السمو والنبل.

روي أن زياداً بعث ابنه إلى معاوية، فكاشفه عن فنون من العلم، فوجده عالماً بكل ما سأله عنه، ثم استنشده الشعر، فقال: لم أروِ منه شيئاً، فكتب معاوية إلى زياد، يحثه على تعليم ابنه الشعَر، ويأخذ عليه تقصيره في رعاية هذا الجانب الهام في تربيته وتثقيفه، قال له: «ما منعك أن تروّيه الشعر؟ فوالله إن كان العاقّ ليرويه فيَبَرّ، وإن كان الجبان ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل»(٢).

وقال له في موطن آخر: «اجعلوا الشعر أكبر هَمكم، وأكثر آدابكم؛ فإن فيه مآثر أسلافكم، ومواضعَ إرشادكم..»(٣).

---

(١) العمدة : ١/٢٩، المجتنى : ٥٢، مجالس ثعلب : ١/٦٧.
(٢) العقد : ٥/٢٧٤.
(٣) الكامل : ١٤٢٣.

ودخل عليه مرة الحارث بن نوفل، ومعه ابنه عبد الله، فسأله معاوية: ما علّمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض، فقال: روّه فصيح الشعر؛ فإنه يفتّح العقل، ويفصّح المنطق، ويطلق اللسان، ويدلّ على المروءة والشجاعة..»(١).

الدّور الثقافي : ومن الواضح أن معاوية قد أشار في النص السابق الذي حث فيه الحارث تعلم ابنه الشعر إلى وظيفة أخرى هامة لهذا الفن الأدبي، وهي الوظيفية الثقافية العلمية، فمن حفظ ورواه اتسع أفقه، ونمت معرفته، إذ يقفه على عوالم غنية، وأجواء بعيدة رحبة، وهو عامل من عوامل الذكاء والفطنة؛ إذ فيه خلاصة تجارب الصفوة، والشعر ـ للعرب ـ ديوانها، وكتاب معرفتها، ومستودع ثقافتها وعلمها، وفيه أسرار لغتها، ودقائق لسانها، ولذلك كان فصيح الشعر : «يفتّح العقل، ويفصّح المنطق، ويطلق اللسان(٢)».. وهو أعلى مراتب الأدب والثقافة، قال معاوية : «يجب على الرجل تأديب ولده، والشعرُ أعلى مراتب الأدب(٣)»..

الشعر ممتع : ويبدو أن قدرة الشعر على تحقيق هذه الوظائف التي يتوقف معاوية عند بعض منها ترجع إلى ما فيه من إمتاع. إن الشعر فن شائق جذاب، وهو ـ في موطن المقارنة بينه وبين النثر ـ أكثر متعة وألقاً، إن له من الجماليات المتمثلة في لغته الباهرة، وخياله المجنح الوثاب، وموسيقاه المطربة العذبة، ما يجعله فناً من القول لذيذاً، لقد طالت مفاضلة النقاد بين الشعر والنثر، وكان لكل منهما عشاق وأنصار، وله حججه في التقديم والإيثار، ولكن استعمال معاوية لتعبير (المتعة) في الشعر ـ في هذا الوقت المبكر من تاريخ النقد الأدبي ـ يبدو شيئا لافتاً للنظر، فقد شاع هذا الوصف بعد ذلك، ولا سيما في النقد الحديث عند أصحاب المذهب الجمالي.

روي أن معاوية ـ لما حمُل إليه هدبة بن خَشْرَم العذري ـ وكان قتل زيادة بن زيد ـ سأله: ماذا تقول؟ فقال هدبة: أتحب أن يكون الجواب شعراً أم

---

(١) المصون : ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) السابق نفسه.
(٣) العمدة : ١/٢٩.

نثراً؟ قال معاوية: بل شعراً فإنه أمتع. فأنشد هدبة...(١)».

إن معاوية يطرب لسماع الشعر، فهو ـ في رأيه ـ أمتع من النثر، وأدخل في النفس. وهكذا يكون هذا الناقد قد فطن إلى الجانبين الهامين اللذين هما عماد أي فن عظيم: الفائدة والمتعة، فللشعر ـ كما ذكر معاوية ـ وظائف نبيلة جلى، وهو ـ إذ يطرب المتلقي ويمتعه، وإذ تلذ الأنفس لسماعه ـ تتحقق له القدرة على أداء دوره بشكل أمثل وأعمق.

ـ خلود الأثر :

ويمتلك الشعر العظيم المقدرة على الديمومة والخلود، إن أثره لا ينقضي بانتهاء قائله أو ذهابه، ولكنه يمتد في عقب الأجيال، ويبقى صداه عالقاً في الضمائر والآذان، فلا ينبغي لأحد أن يهوّن شأن الكلمة، أو يَحْقِر مداها. إن الشعر قد يَخْلُد ويُخَلِّد، وقد يبقى ويُبقي، ولطالما تحدثت العرب عن دوره في «تخليد مآثرها».

قال معاوية لابن الأشعث بن قيس: ما كان جدك قيس بن معدي كرب أعطى الأعشى؟ فقال: أعطاه مالاً وظهراً ورقيقاً وأشياء نسيتُها. فقال معاوية ـ مشيرا إلى ديمومة الأثر الذي نتحدث عنه: «ولكن ما أعطاكم الأعشى لا يُنسى(٢)».

بين عمر بن الخطاب ومعاوية

ذكرنا عرضاً في سياق الكلام المتقدم سبق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى هذا المنحى من الحديث عن دور الشعر(٣) ووظائفه المختلفة، ثم جاء معاوية فاتفق معه في الرأي، بل بدت ملاحظات الفاروق أبي حفص النبع الذي

---

(١) الكامل : ١٤٥٢، وفي شرح شواهد المغني : ٥/٢٣٥ «فإنه أنفع».

(٢) تمام المتون : ٢٩٣.

(٣) انظر بحثنا «نقد الشعر عند عمر بن الخطاب» في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، العدد الثاني.

يغترف منه معاوية، لقد تلبَّث عمر طويلاً في الحديث عن طاقات الشعر المختلفة، وعن أثره النفسي، وعن قدرته العجيبة على التوجيه والتسديد، والتربية والإصلاح. كان يقول: «تعلموا الشعر، فإن فيه محاسن تُبتغى، ومساوىء تُتَّقى، وحكمةً للحكماء، ويدلُّ على مكارم الأخلاق(١)»، وكان يقول: «تحفَّظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلّم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال(٢)»، وتحدث عن دوره في التكوين الثقافي العلمي، فقال: «يفتّق الفطنة، ويشحذ القريحة(٣)» وسأل ابنة زهير بن أبي سلمى ـ على نحو ما سأل معاوية بعدُ ابن الأشعث بن قيس ـ قال لها: «ما فعلت حلل هرم بن سنان التي كساها أباك؟ قالت: أبلاها الدهر» فقال ـ متحدثاً عن ديمومة الكلمة وامتدادها ـ : «ولكن ما كساه أبوك هرماً لم يُبله الدهر»(٤).

فعمر أستاذ معاوية في هذا المنحى الخلقي من الحديث عن الشعر، وبيان أغراضه ووظائفه، والإلحاح على تعلم النماذج الخيرة منه، والتفطين إلى أنه نشاط ممتع مفيد، ينطوي على طاقات ثرة يمكن توجيهها واستثمارها في التربية والإصلاح، وفي بناء النفس بناء فكرياً سليماً.

الشعر بين القبول والرفض

إن معاوية شديد الحماسة للنماذج الخيرة من الشعر، تلك التي تربي خلقاً فاضلاً، أو تحث على مكرمة، أو تبعث على الخير والفضل. وقد تمثلت هذه النزعة الدينية الخلقية في جميع المواطن التي مرّت معنا: حديثه عن غائية الشعر ووظائفه التربوية الاجتماعية الثقافية، النماذج التي كان يحفظها ويتمثل بها في المجالس والمواطن الكثيرة، ما روي عنه من الأشعار التي قالها. ومثلما كان

(١) كنز العمال : ٣/٨٥٥.
(٢) نضرة الإغريض : ٣٥٧.
(٣) السابق نفسه.
(٤) الأغاني : ١٠/٢٠٥، نثر الدر : ٢/٢٧.

يطرب للنموذج الكريم من القول، أثر عنه النعي على أغراض وفنون منه. هجَّن معاوية ضروباً من الشعر، وسفَّه قائلها، ونهى عنها، ورأى فيها منْقصَة من قدر القائل وكرامته، وضرباً من الإفساد والعيث، كالتشبيب بالنساء، والهجاء، ومديح التكسب، وغير ذلك من الأغراض السفيهة التي لا تتفق مع دين ولا خلق، وقد تجلى ذلك فيما قاله لعبد الرحمن بن الحكم الذي شهر بقول الشعر(١):

ـ **التشبيب بالنساء** : قال معاوية لعبد الرحمن: «يابن أخي، إنك شُهِرتَ بالشعر، فإياك والتشبيبَ بالنساء، فإنك تغرّ الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها...»

وفي رواية: «فتغرّ الشريفة، وترمي العفيفة، وتقرّ على نفسك بالفضيحة..»

ـ **الهجاء** : قال لعبد الرحمن: «وإياك والهجاء، فإنك لا تعدو أن تعادي كريماً، أو تستثير به لئيماً» وفي رواية: «فإنك تُحْنِق عليك كريماً، وتستثير سفيهاً».

ـ **المديح** : ثم قال له: «وإياك والمديح، فإنه طعمة الوقاح، وتفحش السؤال» وفي رواية: «فإنه كسب الخسيس» وفي أخرى: «فهو كسب الأنذال، وإن لم تجد من المدح بُدّاً، فكن كالملك المرادي حيث مدح، فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح، فقال :

أحللتُ رحلي في بني ثُعَلٍ ... إن الكريم للكريم مَحَلّ

ثم رخّص لهذا الشاعر في ضرب من الشعر، فقال: «ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزيِّن به نفسك أو ما توقِّر به نفسك ـ وتؤدِّب به غيرك...»

---

(١) العقد : ٥/٢٨١، التذكرة الحمدونية : ٣٨٨، نثر الدر: ٣/٢٢. المحاسن والمساوىء : ٤٣٢، محاضرات الأدباء : ١/٨١.

إن النزعة الدينية الخلقية واضحة في هذا النص الهام؛ لقد نهى معاوية عن أغراض خسيسة من الشعر، وعلل ذلك تعليلاً خلقياً؛ نهى عن التشبيب بالنساء، لما فيه من فحش، واعتداء على الأعراض، وفضح للحرمات، ولما فيه من إغراء بالرذيلة، واستبهار بالفاحشة، وتزيين للمنكر، ونهى عن الهجاء، فهو قذف، يزرع الحقد، ويولّد البغضاء، وهو يستعدي الكريم إن كان في كريم، وهو يستثير اللئيم ويُضَرِّيه على العداوة والشحناء، ونهى معاوية عن مديح التكسب، فهو كسب خسيس، كسب الأنذال الصغار، الذين يمتهنون الكلمة، ويتاجرون بالشعر، فيمدحون ظالماً، ويعظّمون ذليلاً، غير مميّزين حقاً من باطل، وصدقاً من كذب، ضمائرهم تشترى بحفنة من مال، وألسنتهم يلويها الدرهم والدينار. وإذا كان المديح أمراً لا نُدْحة عنه، فليمدح الشاعر أهل الفضل والخير بلا استخذاء أو تصاغر، وتوقيراً لا طمعاً، وتجسيداً للمثل لا جشعاً.

ولكن معاوية أذن لعبد الرحمن من الشعر بما يدل على النبل والفضل والخير والحق، رخّص له في تخليد المآثر، وتمجيد البطولة، والفخر بالمكارم ومحمود الخصال، وأن يقول في الحكمة والمثل ما يُشعر بوقاره وحلمه، ويدل على عقله وفضله، وما يكون فيه لغيره تأديب ووعظ، وتعليم وتهذيب.

إن هذا النص واضح الدلالة على أن الشعر فن جاد، ذو غاية وهدف، ولا يجوز اتخاذه مطية للعبث والإفساد، والشاعر صاحب رسالة، فهو مؤدب مصلح، يروج للحق، ويمجد الخير، ويسمو عن مواطن الريب والسفه، والشعر ـ شأنه شأن الكلام جميعه ـ لا يقبل كله، ولا يُرفض كله. فيه الحق والباطل، الحسن والقبيح، مصداقاً لقوله رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام؛ فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»(١).

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد : ٣٧٨.

أحكام على بعض النماذج الشعرية

استحسن معاوية بعض النماذج، وأطلق عليها أحكاماً نقدية تشعر بالتقدير. وعلى الرغم من أن بعض هذه الأحكام لم يكن معللاً، إلا أن المتأمل فيها لا يخطئه أن يقع على معايير معينة بدا الناقد يفيء إليها، أو يستأنس بها، وكان أبرزَها جديةُ المضمون، وانطواؤه على قيم رفيعة خيرة.

قال معاوية يوماً: قاتل الله أبا النجم حيث يقول:

لقد علمتْ عِرسي فلانةُ أنني ... طويلٌ سنا ناري بعيدٌ خمودُها
إذا حلَّ ضيفي بالفلاة ولم أجدْ ... سوى منبتِ الأطناب شبَّ وقودُها(١)

نقد انطباعي : «قاتل الله أبا النجم» ولكنه يوحي بالمعيار الخلقي الذي يحمل الناقد على استحسان هذه الصورة الجميلة لقيمة نبيلة هي الكرم.

ويقول يوماً لجلسائه: أخبروني بأشجع بيت وصف به رجل قومه، فقال له رَوْح بن زنباع: قول كعب بن مالك.

نصل السيوف إذا قَصُرْنَ بخطونا ... قِدْماً ونُلْحِقُها إذا لم تلحقِ

فقال له معاوية : صدقت(٢)

وأذن معاوية يوماً للناس إذناً عاماً، فلما احتفل المجلس قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت قائم بمعناه. فسكتوا، ثم طلع عبدالله بن الزبير، فقال: هذا مقوال العرب وعلامتها: أبو خُبيب. قال: مَهيم؟ قال: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كلُّ بيت قائم بمعناه. قال: بثلثمائة ألف . قال وتساوي، فأنشده للأفوه الأودي.

---

(١) بهجة المجالس : ١/٢٩٦

(٢) الأغاني : ١٦/٢٣٤.

بلوتُ الناس قرناً بعد قرن	فلم أرَ غير ختَّالٍ وقالِ

وقال : صدق، هيه، قال:

ولم أر في الخطوب أشدَّ وقعاً — وأصعبَ من مُعاداة الرجالِ

قال : صدق، هيه، قال :

وذقتُ مرارة الأشياء طُرّاً — فما طعمٌ أمَرُّ من السّؤالِ

قال : صدق، ثم أمر بثلثمائة ألف(١).

ومن الواضح أن معاوية يفيء ها هنا إلى معيار نقدي هام عند العرب، وهو **وحدة البيت**، وكان الذوق العربي عامة - ولعلّ ذلك أيسر في الحفظ، وأعون على التمثل والاستشهاد - يؤثر البيت المستقل برأسه، الذي لا يرتبط بغيره في المعنى، وها هو معاوية يرسي هذا المبدأ النقدي «كلُّ بيت قائم بمعناه» ولعله أول من تحدّث عنه فيما نعرف، ثم شاع وانتشر بعد ذلك، حتى أصبح من عيوب الشعر أن يكون البيت متعلقاً بما بعده، وأطلقوا على ذلك مصطلحاً نقدياً معروفاً، وهو (التضمين) أورد ابن عبد ربه قول قيس بن الملوح :

وأدْنَيْتِني حتى إذا ما سبيْتني — بقول يحل العُصْمَ سهلَ الأباطح
تجافيتِ عني حين لا ليَ حيلةٌ — وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح

ثم قال: «وهذا من أرقّ الشعر كله وألطفه، لولا التضمين الذي فيه. والتضمين أن يكون البيت معلقاً بالبيت الثاني، لا يتم معناه إلا به، وإنما يُحمد البيت إذا كان قائماً بنفسه»(٢) وذكره المرزباني في عيوب الشعر، فقال: «والتضمين هو بيت يُبنى على كلام يكون معناه في بيت يتلوه من بعده مقتضياً له...»(٣).

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٢٠٣.
(٢) العقد : ٥/٣٧٨.
(٣) الموشح : ٢٣.

الذوق والانطباع الشخصي حيناً آخر.

- **عدي** : روي أن معاوية «كان يفضل عديّ بن زيد على جماعة الشعراء(٣)» وهو رأي غير معلل، فمعاوية لا يُفصح عن سبب هذا التفضيل،

---

(١) دراسات في الأدب الجاهلي : ٧١.
(٢) البيان : ٢/ ٢٢٠.

ومما أثر عن معاوية من أحكام على الشعر استحسانه قصيدتَيْ عمرو ابن كلثوم والحارث بن حلّزة اليشكري. قال: «قصيدة عمرو بن كلثوم، وقصيدة الحارث بن حلّزة من مفاخر العرب. كانتا معلّقتين بالكعبة دهراً»(١).

وهذا قول في منتهى الأهمية، فهو يثني على قصيدتين من قصائد الشعر

ولا ندري المقصود بهذا اللقب على وجه التحديد، فعبارة معاوية لا تذكره صراحة، واختُلف فيه، فقيل المقصود أنه «يطرب إطرابها»(١) أي الصَّنْج، وهو آلة موسيقية، وكأن في ذلك إشارة إلى جانب موسيقي في شعر الأعشى يجعله مطرباً شاجياً، أو صالحاً للتغني، وقيل لأنه أول من ذكر الصنج في شعره، فقال:

ومستجيبٍ لصوت الصَّنج تسمعهُ   إذا ترجِّعُ فيه القينة الفُضُلُ(٢)

وقيل سمي صناجة العرب «لجودة شعره(٣)» فقد كان كما وصفه أبو عمرو بن العلاء ـ الذي كان يفخّم من شأنه، ويعظّم محله «كثير الأعاريض والافتنان»(٤).

وعلى جميع الوجوه تبدو عبارة معاوية حكما نقدياً دقيقاً، وهي ـ على إيجازها تشير إلى الخصائص الفنية في شعر الأعشى، وهي الموسيقية والإطراب، وأناقة هذا الشعر وحلاوته، وقد اعتدَّ النقاد المتأخرون بهذا الرأي، وشايعوا معاوية عليه.

بعض شعراء مزينة :

ومن أحكام معاوية النقدية على الشعراء ما نُقل عنه من أنه كان يؤثر مزينة، ويرى أن أشعر الشعراء ـ في الجاهلية والإسلام ـ منها. قالوا: «كان معاوية يفضل مُزينة في الشعر، ويقول: كان أشعر أهل الجاهلية منهم، وهو زهير. وكان أشعر أهل الإسلام منهم، وهو ابنه كعب، ومعن بن أوس»(٥).

وهو حكم غير معلل؛ إذ لم يذكر معاوية لماذا يؤثر هؤلاء من شعراء

(١) محاضرات الأدباء : ١/ ٨٢.
(٢) الشعر والشعراء : ٢٥٨.
(٣) خزانة الأدب : ٢/ ٢٨٨، اللسان «صنج».
(٤) خزانة الأدب : ١/ ٧٦.
(٥) الأغاني : ١٢/ ٥٥، مختصر تاريخ دمشق : ٧/ ٢٦١، خزانة الأدب : ٧/ ٢٦١ ...

مزينة؟ ولكن ما ذكره النقاد من أن هؤلاء من فحول الشعراء ومجيديهم، ولا تخلو أشعارهم جميعاً من معانٍ جادة نبيلة تصادف هوى في نفس ناقد خلقي مثل معاوية؛ قد يدنوبنا من معرفة سبب هذا الإيثار.

وهكذا أطلق معاوية بن أبي سفيان مجموعة من الأحكام النقدية تتعلق بعدد من الشعراء، وكان أغلبها في شعراء الجاهلية. وهي ترد جميعاً في معرض الاستحسان والقبول، وكان بعضها معللاً، وبعضها غير معلل، وهي تفصح عن إعجاب بشعراء غلبت على أشعارهم المعاني الجادة الهادفة، وكان معاوية سباقاً إلى أحكام معينة أثرت عنه، ثم شاعت بعد ذلك في التاريخ الأدبي.

مواقف مع الشعراء

وفد على معاوية عدد كبير من الشعراء، وعاصر كثيراً منهم، وقد استمع إلى بعضهم، وناقش بعضاً آخر، ومُدح فأعطى. وكان ـ كما رأينا ـ يدرك خطر الشعر، ويقدر دور الشعراء، ولاسيما في مثل تلك المعارضة السياسية العاصفة التي كان يواجهها، والتي كان الأدب يلعب فيها دوراً ظاهراً متميزاً؛ فالشعراء إعلام الدولة في تلك العصور، أقوالهم نفّاذة ذائعة، وأشعارهم سيّارة منتشرة، وكان معاوية يرى أن تأليفهم، وكسب ودهم، خير من استعدائهم وتأليبهم، ولذلك لم يُعرف معاوية بالشدة مع الشعراء كما كان عمر بن الخطاب، بل اتسمت معاملته لهم ـ في شكلها العام ـ برفق، ولكن من دون تفريط،، وحلم أو تحالم كان مفطوراً عليهما، ولكن من غير شطط أو تضييع، وإليك نماذج من هذه المواقف.

ـ كان النابغة الجعدي مع علي في صفين، فكتب معاوية إلى مروان، فأخذ أهل النابغة وماله، فدخل النابغة على معاوية وعنده مروان وعبيد الله بن مروان، فأنشده.

مَنْ راكبٌ يأتي ابن هندٍ بحاجتي ... على النأي والأنباءُ تَنمى وتُجْلَب
ويخبر عني ما أقول ابنَ عامر ... ونعم الفتى يأوي إليه الُمعصَّبُ
فإن تأخذوا أهلي ومالي بظنةٍ ... فإني لأحرار الرجال مجرّبُ
صبورٌ على ما يكره المرءُ كلِّه ... سوى الظلمِ، إني إن ظُلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلى مروان فقال: ما ترى؟ قال: أرى ألا ترد عليه شيئاً. فقال: ما أهون عليك أن يقطع علّي عرضي ثم ترويه العرب، أما والله إنْ كنتَ لمن يرويه. اردد عليه كل شيء أخذته...(١)».

شاعر كان له دور في الفتنة الكبرى، شأن الكثيرين، وهو الآن يعتذر بأبيات مؤثرة، ويطلب رفع المظلمة عنه، ويهدد بأنه لن يسكت على الحيف، فيتألفه معاوية، ويردّ عليه ما أخذ منه، فيقطع لسانه بالإحسان، ويتقي أن يكون شعره السيار موجهاً ضده، فيُرْجف به المرجفون.

ومن هذه المواقف ما روي من أن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت شبب بأخت معاوية ـ وقيل ابنته ـ فغضب يزيد، وقال لأبيه: اقتل عبدالرحمن بن حسان. قال: ولَم؟ قال: شبب بعمتي. قال: وما قال؟ قال: قال:

طال ليلي وبت كالمحزون ... ومِلِلْتُ الثواء في جَيرونِ

قال: يابني! وما علينا من طول ليله وحزنه؟ قال يزيد: إنه يقول:

فلذاك اغتربتُ بالشام حتى ... ظن أهلي مُرَجّماتِ الظنونِ

قال: يابني! وما علينا من ظن أهله؟ قال: إنه يقول:

هي زهراءُ مثل لؤلؤة الغـ ... ـواصِ ميزت من جوهرٍ مكنونِ

قال: صدق يابني. قال: وإنه يقول:

وإذا ما نسبتها لم تجدْها ... في سناء من المكارمِ دُونِ

(١) خزانة الأدب : ٣/١٧١.

قال: صدق، هي هكذا. قال: إنه يقول:

ثم خـــاصرتَها إلى القُبَّة الخضـــــراء تمشي في مـــرمـــرٍ مكـــونِ

قال: ولا كلُّ هذا يابني، وفي رواية: كذب، ثم ضحك وقال: أنشدني ما قال أيضاً، فأنشده:

قُـبَّـةٌ من مراجلٍ نصبوها ....

قال: يابني، ليس يجب القتل في هذا. والعقـوبـة دون القتـل، ولكنـا نكفُّه بالصلة والتجاوز عنه. وقيل إن الناس قالوا لمعاوية: لو جعلته نكـالاً، فقـال: لا، ولكن أداويه بغير ذلك. ودخل عليه عبدالرحمن يوماً في أُخريات الناس، فأجلسه على سريره، وأقبل عليه بوجهه وحديثه، ثم قال: إن ابنتي الأخرى عاتبة عليك, قال: في أي شيء؟ قال: في مدْحتك أختَها وتركك إياها. قال: فلها العُتْبى وكرامـة. أنا ذاكـرهـا. فلما فعـل، وبلـغ ذلك النـاسَ قـالـوا: وقـد كنـا نـرى أن نسيب عبدالرحمن بن حسان بابنة معاوية لشيء، فـإذا هـو على رأي معـاويـة وأمـره، وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى أنـه إنما خـدعـه ليشبب بهـا، ولا أصل لها، ليعلم الناس أنه كذب على الأولى لما ذكر الثانية..»(١).

لقد أبدى معاوية في تعامله مع عبدالرحمن بن حسان حلما ودهاء، وذكَّر صنيعَـه ـ وهو يخفف من وقع كلام الشاعر، ويحاول صرفه عن وجهه، لتهدئة ثائرة يزيد المتهور الغاضب ـ صنيعَ عمر بن الخطاب مع بني العجلان، عنـدمـا أتوه يستعدونه على النجاشي الذي هجاهم(٢)، فـراح يسـألهم عما قـال، وهـو يوجه الكلام في منحى آخر لتسكين سَـوْرتهم، ولكن عمر ـ شأنه شأن معاوية هنا ـ كان أعلم الجميع بمرمى الكلام الحقيقي، وعلى أن الفاروق الحـازم الـذي لا يهادن إذا آنس في أمر غير الحق أتى بالنجاشي فهدده بقطع لسـانـه إن عـاد،

---

(١) خزانة الأدب : ٧/٣١٧ ـ ٣١٩.
(٢) انظر كنز العمال : ٣/٨٦٨.

وأما معاوية الداهية الحليم فأوقع بعبد الرحمن، إذ أظهر ادعاءه، وأطلع على كذبه، وبلغ منه ما أراد بالرفق والحيلة..

وقيل إن صاحب القصة الآنفة هو الشاعر أبو دهبل الجمحي، وأن معاوية قال له لما بلغه عنه ما قال: ما كنت أظن أن في قريش أشعر منك حيث تقول:

ولقد قلتُ إذ تطاول سقمي ... وتقلَّبتُ ليلتي في فنونِ
ليت شعري أمن هوى طار نومي ... أم براني الباري قصير الجفونِ

غير أنك قلت :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغـ ... ـوّاص ميزت من جوهر مكنون
وإذا ما نسبتها لم تجدها ... في سناء من المكارم دون

ووالله إن فتاة أبوها معاوية وجدها أبو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت، وأيّ شيء زدت في قدرها، ولقد أسأت في قولك:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنون

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما قلت هذا، وإنما قيل على لساني. فقال له: أما من جهتي فلا خوف عليك، لأني أعلم صيانة ابنتي نفسها، وأعرف أن فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب في كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يَجُز، وإنما أكره لك جوار يزيد، وأخاف عليك وثباته، فإن له سَوْرة الشباب وأنفة الملوك. وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دهبل فتنقضي المقالة عن ابنته. فحذِر أبو دهبل، فخرج إلى مكة هارباً على وجهه... ويبدو أنه ظل يقول شعراً فيها، ويذيعه في مكة، فحجّ معاوية في تلك السنة، ولما انقضت أيام الحج كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وشعرائهم، وكتب فيهم اسم أبي دهبل، ثم دعا بهم ففرق في جميعهم صلاتٍ سنية، وأجازهم جوائز كثيرة، فلما قبض أبو دهبل جائزته، وقام لينصرف ، دعا به معاوية، فرجع إليه، فقال له: يا أبا

دهبل! مالي رأيت أبا خالد يزيد ابن أمير المؤمنين عليك ساخطاً في قوارص تأتيه عنك وشعر لا تزال قد نطقت به وأنفذته إلى خُصَمائنا وموالينا؟ لا تعرض لأبي خالد، فجعل يعتذر إليه ويحلف له أنه مكذوب عليه، فقال له معاوية: لا بأس عليك، وما يضرك ذلك عندنا. هل تأهَّلتَ؟ قال: لا قال: فأي بنات عملت أحبُّ إليك؟ قال: فلانة، قال: قد زوّجتكها وأصدقتها ألفي دينار، وأمرت لك بألف دينار، فلما قبضها قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفو لي عما مضى! فإن نطقت ببيت في معنى ما سبق مني فقد أبحت به دمي، وفلانة التي زوجتنيها طالقٌ البتة»(١).

وهكذا صبر معاوية على هذا الشاعر الماجن، وسلك في التعامل معه سبلاً شتى، هدّده وخوَّفه يزيدَ الجامح الغضوب الذي لا تؤمن سَورته، ولا يملك حلم الشيوخ وصبرهم، ثم عاتبه عتاباً فيه رفق وهوادة، ثم ألف قلبه واسترضاه بالهدية، ثم سعى في تزويجه ليكفه الزواج عن غوايات العُزَّاب وعبثهم.

وإذا حاول معاوية علاج نزوات الشعراء وجموحهم بالرفق واللين تارة، والحلم والنصح تارة أخرى، والصلة وتأليف القلوب تارة ثالثة، فإن هذا لا يعني أنه كان يدع الحزم في جميع الحالات، لقد أخذ على يد بعض الشعراء، واستعمل العقاب إذ أدرك أن العقاب لامَنْدُحة عنه، وكان في قول الشاعر أو سلوكه شائبة تمس الدين أو الخلق.

بلغه أن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت هاجى عبدالرحمن بن الحكم بن أبي العاصي، فقال فيه:

فأما قولك الخلفاء منا ... فهم منعوا وريدك من وِدَاجِ
ولولاهم لكنت كحوت بحرٍ ... هوى في مظلم الغَمَرات داجي
وكنتَ أذل من وتدٍ بقاعٍ ... يُشَجِّج رأسه بالفِهْر واجي

---

(١) الأغاني: ٧/١٢٣ ـ ١٢٦.

خاتمة البحث

عرض هذا البحث لمعاوية بن أبي سفيان ناقداً، وتوقف عند ما أثر عنه من أقوال ومواقف تتعلق بالشعر والشعراء، فحاول دراستها دراسة موضوعية منهجية تضع اليد على جانب هام من جوانب هذه الشخصية المتميزة.

ويمكن في الختام تقويم الملكة النقدية عند معاوية، وإيجاز ملامحها العامة في النقاط التالية:

ـ يعد نقد معاوية ـ بحكم مكانه القيادي خليفة للمسلمين ـ نقداً رسمياً، فلا بد إذن أن تملي بعضه أعرافُ الحكم، ومسؤوليات الحاكم، ومصلحة الدولة، واعتبارات سياسية واجتماعية معينة، أكثر مما يمليه الذوق الشخصي والانطباع الذاتي.

ـ بدا معاوية ـ فيما أثر عنه من أقوال ومواقف ـ ناقداً خبيراً بفن الكلام، ذا حس مرهف، وذوق مدرب مصقول، ممكّناً من النفاذ إلى أسرار القول ودقائقه، ومعرفة الشعراء وأقدارهم، والحكم عليهم، وقد هيأه لممارسة هذا النشاط الأدبي تكوين ثقافي ممتاز، قام على معرفة للكتابة، وتمكن من الفقه، وحفظ واطلاع على الشعر، وملكة قادرة على نظمه، وفصاحة وبلاغة وخطابة عرف بها، واهتمام دائم باستقبال العلماء والأدباء في مجالسه، والاستماع إليهم، ومباحثتهم في أمور البلاغة والبيان، ومسائل الشعر والأدب، وأخبار العرب وأنبائهم وأيامهم.

ـ ويدل ما وقع إلينا من آراء معاوية ومواقفه من الشعر والشعراء على إثارة هذا الخليفة الناقد مجموعةً من القضايا الأدبية الهامة، منها النظري، ومنها التطبيقي، فمن النقد النظري حديثه العميق عن دور الشعر، والنظر إليه على أنه نشاط هادف جاد، وأنه فن ممتع مفيد، ذو تأثير نفسي بعيد المدى يوجه ويهذب، ويصلح ويربي، ويثقف ويعلّم. ومن النقد التطبيقيّ أحكام معاوية على

بعض النماذج الشعرية، وآراؤه في بعض شعراء الجاهلية والإسلام، كعدي، وطفيل، والأعشى، وزهير، وكعب بن زهير، ومعن بن أوس، ومواقفه التي عكست دلالات مختلفة مع طائفة أخرى من الشعراء.

ـ وصدر نقده أحياناً غير معلل، يستحسن أو يستقبح متكئاً على الذوق الشخصي من دون إبداء للأسباب، ومعللاً في أغلب الأحيان، يفيء إلى معايير معينة، أهمها يتعلق بالمضمون، فمعاوية ناقد خلقي جاد، يؤثر المعاني الهادفة النبيلة، والشعر الملتزم البناء، وينفر من شعر السّفه والمعاني التافهة، والأغراض الدنيئة، كالتشبيب بالأعراض، ومديح التكسب، والهجاء، وغيرها، وفاء أحيانا في نقده المعلل إلى معايير فنية، كوحدة البيت، وموسيقا الشعر وحلاوته.

ـ وخلّف معاوية أحكاماً نقدية هامة، ولعله كان سباقاً إلى بعضها، ثم شايعه عليها النقاد المتأخرون، من مثل حديثه عن تعليق القصائد الجياد في الكعبة، وفكرة القدم والحداثة، وفكرة المتعة في الشعر، ونعت الأعشى بالصناجة، وغير ذلك.

ثَبَتُ المصادر والمراجع

١ ـ الأدب المفرد: البخاري، تحقيق محمد هشام البرهاني، المطبعة العصرية، أبوظبي: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.

٢ ـ أسد الغابة: ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، من دون تاريخ.

٣ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي.

٤ ـ الأغاني: ابو الفرج الأصبهاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

٥ ـ أمالي الزجاجي، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت: ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧، الطبعة الثانية.

٦ ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): الشريف المرتضى، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، البابي الحلبي، مصر: ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٥م.

٧ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس: ابن عبدالبر القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٨٢ هـ ـ ١٩٦٢م.

٨ ـ البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م الطبعة الرابعة.

٩ ـ تاريخ الخلفاء: السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٨١م.

١٠ ـ التبيين في أسماء القرشيين: ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمد نايف الدليمي، بيروت: ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

١١ ـ التذكرة الحمدونية: ابن حمدون محمد بن الحسن، تحقيق د. إحسان عباس، معهد الإنماء، بيروت: ١٩٨٣م.

١٢ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: الصفدي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر: ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م.

١٣ ـ جمع الجواهر: الحصري القيراواني، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣م.

١٤ ـ الحيوان: الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية.

١٥ ـ خزانة الأدب: البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة: ١٩٧٩م.

١٦ ـ دراسات في الشعر الجاهلي: د. عبدالعزيز نبوي، الصدر للطباعة، القاهرة: ١٩٨٨م.

١٧ ـ شرح شواهد المغني: البغدادي، تحقيق عبدالعزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون، دمشق.

١٨ ـ الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه: د. يحيى الجبوري.

١٩ ـ الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر: ١٩٦٦م.

٢٠ ـ الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبي الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م.

٢١ ـ طبقات فحول الشعراء: ابن سلام، تحقيق محمود شاكر، جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض.

٢٢ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تقي الدين الفاسي المكي، مؤسسة الرسالة، بيروت : ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٣ ـ العقد الفريد: ابن عبدربه، تحقيق أحمد أمين، إبراهيم الإبياري، عبدالسلام هارون، القاهرة: ١٩٤٩م.

٢٤ ـ العمدة: ابن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت: ١٩٧٢م، الطبعة الرابعة.

٢٥ ـ عيون الأخبار: ابن قتيبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

٢٦ ـ فاكهة الصيف وأنيس الضيف: المنسوب للسيوطي، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٧ ـ فحولة الشعراء: الأصمعي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، بيروت: ١٩٧٢م.

٢٨ ـ الفرج بعد الشدة: التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت: ١٣٩٨ هـ .

٢٩ ـ الكامل: المبرد، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٠ ـ كنز العمال: علاء الدين الهندي، تحقيق حسن رزق، صفوة السقا، التراث الإسلامي، حلب: ١٣٩٠ هـ ـ

٣١ ـ لباب الألباب: أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٢ ـ مجالس ثعلب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، مصر، ط ثانية.

٣٣ ـ المجتنى: ابن دريد، دار الفكر، دمشق ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م

٣٤ ـ المحاسن والمساوىء: البيهقي، دار صادر، بيروت: ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م

٣٥ ـ محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني، بيروت، من دون تاريخ.

٣٦ ـ مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار الفكر، دمشق.

٣٧ ـ المصون: أبو هلال العسكري، تحقيق عبدالسلام هارون، الكويت: ١٩٦٠.

٣٨ ـ المنصف: ابن وكيع التنيسي، تحقيق ، د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٩ ـ الموشح: المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة: ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.

٤٠ ـ نثر الدر: الآبي، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٨٠م وما بعدها.

٤١ ـ نسب قريش: المصعب الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب، الطبعة الثالثة.

٤٢ ـ نصوص النظرية النقدية عند العرب من العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الثالث الهجري: د. وليد قصّاب، المكتبة الحديثة، العين: ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٣ ـ نصيحة الملوك: الماوردي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، وزارة الثقافة والإعلام، العراق: ١٩٨٦م.

٤٤ ـ نضرة الإغريض ونصرة القريض: المظفر العلوي، تحقيق د. نهى عارف، مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م.

٤٥ ـ الوساطة: الجرجاني، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي. عيسى البابي الحلبي، مصر: ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م

٤٦ ـ وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.